يمنى العيد

تغيير المشهد من القراءة إلى الصياغة

مجالٍ واسع يتغيّرُ المشهدُ فيه: من الجنوب، من رأس الناقورة وشبعا والخيام، من راشيا والبقاع الغربي.. من هذه الأطراف الحدودية امتداداً، وفي خطوط مفروشة بالمدن والقرى، حتى القلب بيروت في شقها الغربي، يتغيّرُ المشهدُ المرئي الذي كان. الأرضُ والبيوتُ والناسُ مصابةٌ بالدّمار والموت.. جنودٌ غارقون في آلياتهم، يتحرّكون جماعاتٍ جماعات ويملأون مجالَ العين. ألوانٌ حديدية. نظراتٌ مسوّرة. والنجمة السُّداسية تغيّر سمةَ الفضاء ووخوخة حرف الحاء تكسر إيقاعه..

المرئي لم يعد كما ألفناه وأحببناه. لقد غيَّره هؤلاءِ الإسرائيليون الداخلون إلى أرضنا. غيّروه باتجاه دماره وموته، ونحن كنا قد بنيناه باتجاه جماله وعيشه.. هكذا يتقدّم معنى أولي من معاني تغيير المشهد هو المضمون المحسوس، وعلى مستوى المعيش، لمقولة الاحتلال. يتقدم هذا المعنى عميقاً، حاملاً لهويته الصدامية لأنه، وبوضوح، يحدِّدُ من هو القاتل ومن هو المقتول. من هو المعتدي أو من هو المعتدى عليه.. إنه، وبكل بساطة، ما يُرسي أرضاً لولادة المقاومة على مستواها الشعبي العريض.. لذا كانت إسرائيل تحاول تحييدَ هذا المضمون، تدفعُه إلى الظل، وتشوّهُه بمراهنة أساسية على ضعف الوعي السياسي لدى أبناء شعبنا، وضعف الرؤية النظرية والموقف الفكري لدى مثقفينا.

ولئن كان هذا المضمون المحسوس هو مضمونٌ مقروءٌ في العمل العسكري لعملية الاحتلال، فإن تشويهه يعني تشويهَ هذه القراءة. وهو فعل يتحقق على المستوى الثقافي بإنتاج الخطاب المشوِّه والذي ليس له أن يظهر كذلك. هكذا وبقدر ما يكون العمل العسكري عملاً مفضوحاً وفادحاً على مستواه الحدثي المرئي، يكون إنتاج هذا الخطاب محتاجاً إلى وسيلة إدائية تخوِّله النطق بغير الحقيقي. لذا كان الثقافي الإسرائيلي يُختزل ويُسخَّر كلياً في خطاب إعلامي مكرَّس لتحقيق وظيفته.

لكن، ولئن كانت إسرائيل هي في أساس قيامها وجودٌ معادل لعمل عسكري، فإن الثقافي لها برز، وفي وجهه الأمم، معادلاً لخطاب إعلامي، أو لخطاب له سمة الإعلامي، به كانت فائدة العسكري به كانت في الوقت نفسه أزمة الثقافي.

من منطلق هذه الأزمة تعاملت إسرائيل، في اجتياحها للبنان، مع هذا المضمون المحسوس المهيَّأ لا لأن يرسي عندنا أرضاً لولادة مقاومة شعبية واسعة وعنيفة وجسب، بل لأن يشكل أيضاً عنصر إضافة وتغيير لثقافتنا باتجاه تجذير وعينا وتطوير سلوكنا الفردي ورقي العلاقات الاجتماعية فيما بيننا، ومن ثمَّ تصليب منطلقات مقاومتنا لها وبلورةٍ توجه هذه المقاومة. لقد كانت إسرائيل تخشى أن يتحوَّل هذا المضمون من مجرد ردة فعل عسكرية مقاومة إلى حالة اجتماعية ثقافية بها ينهض الوعي إذ تنهض به ويؤازرها السلوك إذ تصقله.. مما يعني قيام واقعٍ مقاوم متكامل مقعَّد وبعيد الأثر.. على نقيض هذا الواقع كان يراهن خطاب الاحتلال الإسرائيلي، وعلى ضرب إمكانية قيامه كان يركز.

كيف تعامل الخطاب الإسرائيلي إذاً مع هذا المضمون المحسوس الذي ولده تغيير المشهد؟ وكيف تطور هذا المضمون في علاقتنا به وباتجاه ما هو ضرورته، أي باتجاه تكامله وترسخه كوعي ثقافي ينتج دلالته ويحولُ دونَ التشويه والانحراف والتفتيت؟

لو عدنا قليلاً إلى الوراء، إلى أيام اقتحام إسرائيل أرضنا، وتأملنا في الخطاب الذي كان يواكب ما تقوم به من قتل وتدمير، للاحظنا اهتمامها البالغ بالنص الإعلامي من منشور مكتوب ونصٍ

صوتي مذاع وكلامٍ شفهي تخاطب به الناس بواسطة مكبرات الصوت وأحياناً بدونها.. ولاحظنا أن هذا الخطاب جاء تفسيراً يعتمد، على إيجازه، التعليل والتبريرَ ويوضحُ أنَّ الهجومَ العسكري ليس احتلالاً، بل هو يستهدف فقط، وكما ورد في نص الخطاب، «المخربين». لذا فعمل إسرائيل هو، وحسب نصها طبعاً، ردٌّ على مصادر إطلاق النار عليها.

في مثل هذا الخطاب تكمن غايةٌ بالغةُ الخطورة تتحدد في عكس منطق الأمور في نظر الناس وأمام وعيهم لتبدو وكأن القاتل مقتولاً، وكان المقتول قاتلاً مما يترك أثره على موقف هؤلاء الناس من ظاهرة الاحتلال ويصوغُ تعاملَهم، ولو القلق أو الحائر، معها:

* فإسرائيل المهاجمة تردّ، ومن يردّ يضعُ الآخَر، ضمناً، في موقع المهاجم، وبذلك يبهت طابَعُ الهجوم لفعلها ليلتقي بلقب «الدفاع» المسبغ على جيشها. والنتيجةُ تبريرٌ وشرعيةٌ تتوخاهما إسرائيل لعملها الهجومي ومن ثم لاحتلالها.

* وإسرائيل إذ تُظهِر من يدافع عن نفسه وحقِّه بمظهرِ المهاجم إنما تسميه «مخرباً»، وهي بذلك تضمر فصله عن البقية وتميز البقية عنه. فهناك من هو «مخرب»، وهناك من هو ليس بمُخرب وبينهما مسافة تفسح مجالاً لغير المخرب كي يعيد النظر في «المخرب». أضف أن لفظ التخريب يضعُ المسألةَ على مستوى الهوية والطبيعة والأخلاق والحضارة... وليس، وكما هي قائمة في حقيقتها، على مستوى العمل العسكري السياسي والاقتصادي. أي على مستوى الاحتلال من جهة ومقاومته من جهة أخرى أو الاعتداء والأطماع والتسلط. ودفاع الناس عن حقوقهم وحياتهم ومصيرهم.

يتماسك الخطاب الإسرائيلي في منطقه، ويحاول العمل العسكري ولو ظاهرياً، أن ينسق معه فيحرص على ضرب كل مكان تنطلق منه ولو رصاصة واحدة، كأنه بذلك يريد أن يجعل الناس يشهدون على «صدق» الخطاب، وينسون جوانب المشهد الأخرى. الجوانب العامرة بالموت.. أو كأنه بذلك يخلخل المضمون المحسوس لمعنى الاحتلال الحقيقي.. ليتقدم معنًى آخر به كانت إسرائيل تودّ أن يؤول الناس عملية تغيير المشهد، وبه كانت تمهد لقبولنا لها في ديارنا.

ولقد كان بإمكان الواحد منا أن يسمع بعض الناس، وربما الكثير من الناس، يرددون في الأيام الأولى التي تلت مباشرة احتلال إسرائيل للجنوب، بأن بعض ما أصاب المدن والقرى من تهديم وموت كان بسبب المدفعية المنصوبة بين البيوت. وكلام كهذا وإن كان يشير إلى ضرورة تحييد الأحياء السكنية وما هو بالنسبة للمدنيين ــ غير القادرين على القتال ــ ملاذهم الأخير.. إلا أنه كان، وبشكل أساسي، يغيّب السبب الجذري والحقيقي لمثل هذا الدمار والموت الذي أوقعه الهجوم الإسرائيلي بالبيوت والنفوس. إن هذا الكلام كان، وفي وجه من وجوهه، نوعاً من الدخول غير الواعي، في منطق الخطاب الإسرائيلي نفسه. وهو أمر ينهض، وكما نعلم، على مستوى الإدراك من حيث هو تعبير ثقافي يلتقي ضمناً، وكموقع، مع السياسي.

نقول هذا لندلل على مسألة بسيطة وهي أن إسرائيل التي تملك ما تملك من العدّة والعتاد كانت على معرفة جدّية بأهمية المستوى الفكري، وبالتالي بأهمية ما ينهض على مستوى الوعي، أي بما هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسألة الثقافية، وهو ما له دور التجذير والتصليب لفعل مقاومة الاحتلال.

لقد حاولت إسرائيل أن تعطي المشهد الذي غيّرت منطلقاً واتجاهاً، معنى، وظيفة.. بحدث يبدو فعل الدمار والموت وكأنه فعل اعتراضي، ومجرد فاصلة ضرورية.. كانت تدمر لا البيوت والناس وحسب، بل المعنى، المعنى الملازم لفعل الاحتلال. هذا الصدامي المولود في المشهد.

وفي محاولتها هذه كانت إسرائيل تراهن على عدم عمق وعينا، أو على ضعف منظورنا الفكري وعدم شموليته.. مما يخولها الاعتقاد أن بإمكانها هلهلة المضمون المحسوس في وعي الناس، والحؤول دون تشكله موقفاً سياسياً صلباً إليه ترتكز مقاومتها لها.. أي أن إسرائيل، كانت تراهن على بقاء المقاومة، في حال قيامها، في حدود هذا المضمون التي هي حدود ردة الفعل المباشر والراهن والقابل لتوظيفات هامشية بها يكون تفتته وكسر مداه البعيد.

نحن لا ننكر ما لهذا المرئي المحسوس من أهمية. إنه مرجع حي، منه تولد الصورة فترتسم في الذاكرة، وبه يرجع إيقاع المشاعر ويتكثف لينتقل بالفعل من حيِّز الإمكان إلى حيِّز التنفيذ مَانحاً للمكان زمانَه ومبدعاً للزمن تاريخَه.. لكن، لئن كان بإمكان المقاومة أن تنطلق من هذا المحسوس والمرئي فإنه لا يمكنها أن تستمر به وحده. إنها بحاجة إلى موقع فكري ثقافي يخولها أن تكون مقاومةً لا في حدود العمل العسكري فقط، بل أيضاً على مستوى السلوك الفردي والإحساس الاجتماعي والتوجه الوطني التاريخي. كما يجنبها الوقوع في التوظيفات الهامشية، وفي كلِّ ما يُضعِف مركزيتها في مواجهة الاحتلال

وبحجب بعدها الاجتماعي التاريخي. هنا تبرز أهمية الثقافي من حيث هو مناخ وموقع وأفق يهيىء شروط استمرار المقاومة للاحتلال في أشكاله وآثاره وأبعاده وفي كل ما يهدد كياننا ووجودنا وقدراتِنا على النمو والتقدّم.

ويمكننا القول والتأكيد أن المقاومة في لبنان انطلقت ضد الاحتلال من موقع مكنها لا أن تحقق إنجازات عسكرية سياسية هامة (تمثلت في سقوط اتفاقية ١٧ أيار وفي الانسحابات.. وفي ما أصاب إسرائيل من خسائر مادية)، بل أيضاً أن تفضح الخطاب الإسرائيلي الإعلامي الثقافي، وتصل به إلى أن ينكشف عن نقيض ما توخى أن يقول. أي إلى أن ينكشف عن حقيقته التي أخفى.. لقد أسقطت المقاومة منطق هذا الخطاب الذي حاول أن يتلبس معنى «الدفاع» و«الرد»، وذلك حين لم يبق أمام إسرائيل في مواجهة صلابة المقاومة، وصمتها وتماسكها السرِّي، إلا أن تمارس علانيةً وعلى نطاق واسع، عشوائية الهدم للبيوت الآمنة، وهستيرية القتل والتعذيب لجموع المواطنين الأبرياء.

لقد استطاعت المقاومة أن تجعل المضمون المحسوس لمقولة الاحتلال.. المضمون القائم على مستوى المشهد والمعرَّض لفعل الترجرج والالتباس.. واقعاً واضحاً، قادراً على تغيير وعي الناس، وتطويره ليتعمق في فعل المواجهة والحياة.. هكذا كانت المقاومة تتحول إلى انتفاضة شعبية حبلى بمعادلها الثقافي.. وكانت في تحولها هذا تسقط الغطاء عن ثقافة الاحتلال الإسرائيلي. كانت تفضح هذا الثقافي الإعلامي، تفضحه وتعيده إلى مأزقه، إلى نقيض الدلالة التي حاول أن يمنحها لمشهد دخوله أرضنا. لقد كانت المقاومة تكشف الدلالة الحقيقية لعملية تغيير المشهد وتضع هذه الدلالة أمام وعي الناس وفي متناول قولهم.

لكن المقاومة بقيت في ذلك بحاجة إلى الدلالة الثقافية المتقدمة في الصياغة. الدلالة التي تبني المنطلق وتنطق بالتوجه فتدخل في دورة الثقافي في علاقته بالنضالي. والدلالة هذه هي ما يبني قولاً له شكله وله خصوصيته، وفي الوقت نفسه، ما يصير نسيجاً مقروءًا في نظرة الناس وفي إحساسهم بالعالم حولهم. إنها التعبير القائم بالصمت وبالكتابة، بالحركة والممارسة، بالمقروء والمؤول..

ولئن كانت المقاومة قد هيأت بعملها البطولي لمثل هذه الدلالة، فإن صياغتها فعلاً ثقافياً متعدد الأشكال، واسع الحضور، عميق الأثر في الحياة والزمن.. هو أمر يعود شأنه إلى المثقفين أفراداً ومؤسسات. رجالَ فكر وأدب وفن وعلم ودين. لأنه أمر لا يمكنه أن ينهض إلا على المستوى الثقافي نفسه وهو، ومن حيث هو كذلك، يطرح مسألة الفكر والأدب والفن والعلم. أي مسألة خطابنا الثقافي من حيث هو موقع وتوجه وإمكانية قول في مسيرتنا التاريخية التقدمية..

إن عدم صياغة هذه الدلالة الثقافية في مجالها الواسع والعميق.. أو إن عدم تشكل الدلالة ــ العلامة التي بها نقرأ فعل المقاومة فيقرأنا في اتجاه زمننا الأفضل.. قد يجعل من المقاومة، على كل أهميتها، مجموعة عمليات عسكرية، أو حالة استثنائية لا تحول دون ما نشهده من ثغرات خطيرة ينكسر معها زماننا ويبدو عاجزاً، أحياناً، عن إقامة جدله ونقده، عن مراكمة إنجازاته الهامة، وتعميق الوعي بممارستنا التحررية، وبكيفية إبداع حياتنا كريمة وراقية.